

عودة إلى مالك بن نبي

أ. آمال علاوشيش *

يشهد العالم من حولنا تغيرات حمة وبلا حدود، فلا تكاد تطلّ شمس يوم جديد إلا وحملت معها من المكتشفات والمفاهيم، بل والسياسات التي ما تلبث أن تقتلع السائد والمألوف لتنصبّ من نفسها بديلا عنه، مثل هذا الواقع تعيشه بل تعانيه المجتمعات المتخلفة التي لا تكفّ عن محاولة النهوض والتطلع إلى غد أفضل، ولعلّ بلداننا العربية والإسلامية على الخصوص من أبرزها. هذه المسألة شغلت بال الكثير من مفكرينا على الأخصّ منهم أولئك الذين عاشوا في ظلّ الحضارة الغربية فانبهر بعضهم بها و.بمحتاجاتها وقيمها كما هو شأن المفكر العربي زكي نجيب محمود في بداياته الفكرية، كما نظر البعض الآخر أمثال مفكرنا مالك بن نبي (1905-1973) نظرة ناقدة متفحّصة، وهو مفكرّ يشهد الشرق والغرب بألمعيته وبصيرته الثاقبة.

إنّه رجل شغلته المأساة التي يعيشها العالم الإسلامي فاشتغل بتحليل أسبابها وعواملها، وأمل في أن يستيقظ المسلمون يوما من سباتهم وغفوتهم التي طالت فجعلت منهم بقايا أجساد بلا أرواح، يقتاتون من بقايا ما تجود به موائد الغرب عليهم، هذا الغرب الذي امتثل لهم مقياسا ومرجعا يعودون إليه في كل كبيرة وصغيرة. لقد كتب مالك بن نبي مجموعة مؤلّفات تعتبر حلقات في سلسلة (مشكلات الحضارة)، ركّز في مجملها على أزمة الإنسان المسلم والمثقف على الخصوص، معتبرا أن مشكلة التخلف في المجتمع الإسلامي سببها الإنسان بالدرجة الأولى، هذا المخلوق الذي يجهل قيمة الوقت الذي يهدره بلا مبالاته التي جعلت من ثرواته الطّبيعية نهباً، بل وموردا لا ينضب للغرب ينهل منه وقتما شاء.

* أستاذة بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر.

إننا نعيش واقعا عربيا إسلاميا يبدو في مظاهره المختلفة امتدادا للحضارة الغربية وكأنه قانون تاريخي لعصرنا، هذا الواقع تنبه إليه مفكرنا منذ قرن مضى، ووجد مدلول الآية الكريمة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾¹ أصدق تعبير عنه. ليس هناك من عاقل ينكر ضرورة النهضة في أي مجتمع، والمجتمع الإسلامي أحوج إليها من غيره، لأن الداء الذي ينخر عظامه منذ قرون لا يزال مستفحلا، بل ويتخذ صوراً جديدة جعلته شبيهاً بفيروس داء فقدان المناعة، كلما تمكن الأطباء من محاصرة شكل من أشكاله ظهر بشكل مغاير يستدعي بحثاً جديداً ومجهوداً أكبر.

لقد شخّص مالك بن نبي داء الأمة الإسلامية وهو الذي كان مستغرباً عاش في أوروبا نصف عمره، مطالاً على العالم الغربي الذي جعل منه حقل دراسة يسيطر عليه بفكره ويرقبه بعين الناقد، فلم يدخل لعبته ولم يستغرقه منطقته كما يحصل معنا اليوم، ومع شبابنا بوجه خاص. إننا إذا أردنا النهضة علينا أن نتبين أسباب السقوط، والحركة الإصلاحية كما قادها جمال الدين الأفغاني (1838-1897) ومحمد عبده (1849-1905) وغيرهما لم تفلح في ذلك لأنها لم تستطع أن تغير من نفسية المسلم شيئاً، واعتمدت الغرب معياراً وأصلاً تقاس به الحضارة، الأمر الذي نتج عنه تهميش المجتمع الإسلامي، فسلم من حيث لا يدري "بثقافة الإمبراطورية التي تقوم على أساطير السيادة العنصرية والاستعمار... وتدعي نشر الحضارة"²، ومعنى هذا أن العلاقة مع الغرب القوي أي مع الآخر ينبغي أن تتسم بالحذرة والحذر، لأن الآخر يتعامل معنا وفق مؤامرة محكمة جعلت منه جباراً منتصراً في كل الميادين. إننا كما يقول المفكر أبو الأعلى المودودي بحاجة إلى نهضة جديدة لا تعمل على إعادة ما أنتجه الأسلاف من المفكرين

1. سورة الرعد، الآية 11 - 2. مالك بن نبي: "وجهة العالم الإسلامي"، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (سورية: دار الفكر، 1986)، ط 5، ص 28.

والحقّقين، لأنّ الدّنيا بعدت في سيرها و لن يجدينا نفعا العودة إلى الوراء، والزّعامه مكفولة لمن يتقدّم بالدّنيا إلى الأمام لا لمن يجذبها إلى الخلف¹.

إنّ الإصلاح يبدأ بالإنسان وما أحوج مجتمعاتنا العربيّة إلى مؤمنين يتمتّعون بعقيدة إيجابيّة فاعلة، لا يكونون مجرد متديّنين يكتفون بأداء الطّقوس والشّعائر الدّينية المختلفة فيتمتّعون بإيمان الرّهبان، لأنّ العقيدة قناعة والقناعة فعل وممارسة، وكما يؤكّد المودودي لتكن نتيجة التفوّه بكلمة (لا إله إلّا الله) أن يحصل معها انقلاب في حياة المسلم، فترسخ هذه الحقيقة في قلبه ونفسه رسوخا يجعلها غالبية على أفكاره وتصوّراته وأخلاقه ومعاملاته². وفي السّياق نفسه يؤكّد زكي نجيب محمود على ضرورة أن تكون ثقافة الإنسان مناسبة في عروقه ودمائه، فيعيشها ويكابدها من الدّاخل، والمقصود هنا طبعا ثقافة المسلم الذي لا يجوز له أن يعتنق الإسلام دون أن يلتزم بقيمه فيعيش بمقتضاها ويحيا في ظلّها³.

من هذا المنطلق فإنّ الإصلاح يبدأ من النّفس، "فلم يكن الاستعمار من عبث السّياسيين ولا من أفعالهم، بل هو من النّفس الّتي تقبل ذلّ الاستعمار والّتي تمكّن له في أرضها، ولا ينجو شعب من الاستعمار إلّا إذا نجت نفسه من أن تتّسع لذلّ مستعمر..."⁴، ومعنى هذا أنّه لابدّ من التّخطيط لنهضة حقيقيّة تجعلنا لا ندخل التّاريخ فقط بل ونصنعه أيضا، أمر لا يتمّ في نظر مالك بن نبي إلّا إذا تضافرت عدّة عوامل فيما بينها وتوافقت، فلا بدّ من أشخاص يصنعون أفكارا جديدة بخلق عالم من الأشياء الحقيقيّة، فلا للأفكار المستعارة والحلول الجاهزة الّتي تفقد فاعليّتها وبريقها خارج

1. أبو الأعلى المودودي، "نحن والحضارة الغربيّة"، دمشق: دار الفكر، د.ت، ص 24.
2. المرجع السّابق، ص 267 - 3. زكي نجيب محمود، "تجديد الفكر العربي"، القاهرة: دار دمشق، 1982، ط 7، ص 71 - 4. "شروط النّهضة"، ترجمة: عمر كامل مسقاوي/ عبد الصّبور شاهين، (سورية: دار الفكر، 1987)، ط 4، ص 33.

مجتمعاتها الأصلية "فقد انزلقنا في التقليد الاقتصادي كما انزلقنا ونترلق في التقليد في الأدب وفي اللباس وفي الذوق"¹، تقليد أضعنا به وقتنا ثميناً هو مادتنا الأولية التي ينبغي أن نعتمد عليها وننطلق منها، فتخلّفنا هو نتيجة لتراثنا المعطل وعنصرنا البشري العاطل، ووقتنا الذي لا نعرف فيما نستنفذه بما يعود بالفائدة علينا وعلى مجتمعنا، وهذا يفسّره شعورنا بالحرمان من كلّ شيء، حرمان صار يطبع أسلوب حياتنا وتفكيرنا، وراحت صورته تتجلى في شعورنا العميق بالعجز عن مواجهة المشاكل، وكأنّنا أصبنا بقصور بيولوجي مزمن، شعور جعلنا نكتفي بأقلّ الأوضاع الممكنة فنبحث عن شروط البقاء فقط، بينما غيرنا يبحث عن القوة التي يفرض بها سلطانه علينا، ليحوّلنا إلى عبيد لمنتجاته وأفكاره، بل وسمومه التي تتخذ شكلاً حضارياً برّاقاً يستميلنا ويأخذ بلباب عقولنا. هذه الكلمات توحى إلى حدّ بعيد بمضمون تحليل قام به بعض الفلاسفة الأوروبيين للحضارة الغربية من أمثال فريديريك نيتشه (1844-1900) وهربرت ماركوز (1898-1979) وغيرهما ممن آمن واقتنع بأنّ إحراز التّقدم الحقيقي يبدأ بنقد الذات قبل أيّ شيء آخر.

إنّ النهضة تتطلّب البناء، والبناء ليس عملاً تراكمياً آلياً نقوم به، بل جهداً خارقاً نبذله لنغيّر من أوضاعنا وواقعنا ونصلح ما حولنا، ولن نتمكن من ذلك إذا لم يعترينا شعور بالقلق ممّا نحن عليه من استسلام وركود، وبالخطر الدائم الذي يحرمنا الشّعور بالاستقرار والطّمأنينة، وحدها هذه المشاعر كفيلة بأن تبعث فينا إنساناً جديداً أو على الأقلّ توقظ الإنسان النائم فينا، فتطلق طاقاته المكبلة ليغدو مخلوقاً فعّالاً، ويخرج من عصر الانحطاط الذي أخذ حظّه وافراً منه.

1. "تأملات"، (طبع بالجزائر بإذن من دار الفكر، 1991)، ط 5، ص 55.

ليس في مقدور الفرد أن يعيش بجهد الخالص مهما كانت قدراته وإمكاناته، وهذه حتمية لا جدوى من إنكارها، من هذا المنطلق كان ارتباطه بالجماعة وتضامنه مع أعضائها أمراً ضرورياً لبناء مجتمع حقيقي، مجتمع يتّحد أفرادُه حول الأهداف والوسائل وقبلها على الأفكار التي تؤلّف بينهم، فتتسق جهودهم وتصبّ في إطار المصلحة الواحدة، ومعنى هذا أنّه "على المجتمع الإنساني أن يقرّر فكرته في مستوى آخر ليس مستوى البقاء، ولكن مستوى تطوّر النوع و رقيّه"¹، وذلك حتّى يتميّز عن المخلوقات الأخرى، فإذا كانت السعادة غايتنا فإنّ في اتّصالنا بالمجتمع تحقيقاً لها، وهذا لا يتعارض إطلاقاً مع تشجيع المبادرات الفرديّة وإطلاقها دون كبّحها بما يعيق نشاطها وإبداعها، حتّى لا تضطرّ إلى الهروب كما نعيش ذلك في محاولة إفقار المجتمعات الإسلاميّة من كفاءاتها عن طريق ظاهرة هجرة الأدمغة، هذه المادّة الرّمادية التي يغريها الغرب بكلّ ما تحرّمه منها مجتمعاتها الأصليّة، وهي سياسة تعمل على امتصاص القوى الواعية في هذه البلدان..

في الوقت ذاته علينا أن نحتاط من أن تصاب ذواتنا بالتضخّم كي لا يصبح العمل الجماعي المشترك صعباً أو مستحيلاً²، فلا لفقدان الهمة والرغبة في التّغيير مهما كانت العراقيل كبيرة ومتنوّعة، فإذا كنّا نريد الغايات دون الوسائل، فإنّ هذه الأخيرة لا يمكن استعارتها من أحد مهما كان جباراً وقوياً ومبدعاً، بل يتطلّب الأمر منّا ابتكارها بجهد ذاتيّ أصيل، خاصّة إذا كنّا نعلم أنّ الغرب أدرك مواطن الضّعف فينا وراح يستغلّها لصالحه وسخرنا بعلمه وسياسته لأغراضه، "فلا يستطيع المجتمع أن يتابع مسيرته بعقول خاوية أو محشوة بأفكار ميتة وضمائر حائرة وشبكة من الضّمائر

1. المصدر السّابق، ص 158 - 2. مالك بن نبي، "ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعيّة -" ج1، ترجمة: عبد الصّبور شاهين، سورية: دار الفكر، 1974، ط، ص 24.

المتهدمة ليس تجمعها وحدة"¹، ومعنى هذا أنّ الوحدة أمر بل وشرط ضروري، وسياستنا الاستثمارية ينبغي أن تصبّ في هذا المنحى، فبدل أن نستثمر في الأموال كما هو واقع، علينا أن نستثمر في البشر فنحقق التنمية في رأسمال لا ينضب، ونخلّص أنفسنا من ظاهرة كساد الطاقات الاجتماعية، ونتخلّص من الصّمت الآثم الذي ضرب جذوره فينا، فجعلنا لا نبالي بالفساد الذي ينتشر بين ظهرانينا، على مرأى ومسمع منا.

لم يعد هناك مفرّ من التعايش مع الكبار لأننا في عهد العالمية كما يقول مالك بن نبي، هذا "العهد حان مع نتائج التّمو الصّناعي ومع الفتوحات العلميّة التي أتاحت لطاقات الإنسان أن تسيطر سيطرة تامّة على الكرة الأرضية"²، وهو بالفعل ما نشهده في ظاهرة العولمة (mondialisation)، ويجعلنا نعيش نحن المجتمعات الحائرة بين واقع القوّة من جهة، وواقع البقاء من جهة أخرى، هذا الواقع الذي لا يناسب المجتمعات الإسلامية لأنّها وببساطة لا تجيد التخطيط في عالم مخطّط تحكمه أمريكا بل وتجيد تغييره أيضاً، وما أبشع الفرق بيننا وبينهم.

إنّ قضيتنا هي قضية مجتمع لا بدّ أن تتغيّر سياسته وذهنية أفرادها، وأيّ ثورة تعجز عن ذلك إذا لم تستند إلى قاعدة أخلاقية متينة قادرة على ردّ كلّ أنواع الإجهاض، وما عاشته بلادنا من أحداث وتقلّبات سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة، دليل على صحّة ما نقول، وكما يقول مفكرنا "فإنّ الثورة لا تستطيع الوصول إلى أهدافها إذا لم تغيّر الإنسان

1. "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، ترجمة: بسّام بركة/ أحمد شعبو، سورية: دار الفكر، 1992، ط1، ص 56.

2. "فكرة الإفريقية الآسيوية" - في ضوء مؤتمر باندونغ - ترجمة: عبد الصّبور شاهين، (سورية: دار الفكر، 1981)، ط1، ص 199.

بطريقة لا رجعة فيها، من حيث سلوكه وأفكاره وكلماته"¹، فنحن نبحث عمّن يمولنا من الخارج بوسائله وسمومه في كثير من الأحيان، متصورين بأن التنمية يمكن شراؤها بعملة أجنبية، وتناسي أن الاستثمار الحقيقي والفعلي هو في رأسمال الإنسان، "تلك هي العجلة الضخمة التي يجب دفعها لإنشاء حركة اجتماعية..²".

لقد افتقدنا الفعالية التي يخلقها فينا تشبّعنا بقيمنا الإسلامية الأصيلة، ورحنا ننهر فتمتصّ كلّ ما تقدّمه لنا الحضارة الغربية واحتضناها، وورثنا من حيث لا ندري مقاييسها التي دخلت وعينا وأسلوب تفكيرنا ومنطق استدلالنا، وهذه بالذات هي نقطة الضعف فينا ولا تزال. علينا أن نهتمّ ببناء الإنسان، بتربية وتغيير ذهنيته وأسلوب حياته، وننقذ أنفسنا من وهم التقديس اللاشعوريّ للآخر، هذا الذي أوقعنا في فخّ الاستعباد وكأته ضريبة لا بدّ من دفعها لدخول الحضارة.

إنّ هزيمتنا الثقافيّة قد تمّت ما دمنا نحاول تكوين أنفسنا على صورة الغرب الذي صار الأصل الذي يقاس عليه كلّ شيء، ونحن نقرّ بذلك من حيث خضوعنا لكافة أشكال الهيمنة التي تمارس على مجتمعاتنا، ومعنى ذلك أنّنا فقدنا الثقة في أنفسنا وصرنا نعاني من عقدة الشعور بالدونية.

هذه صيحة أطلقها مفكّر جزائري مسلم منذ ما يفوق الأربعين عاماً، وكأني به استطلع المستقبل الذي سيؤول إليه واقع المجتمع الإسلامي، هذا الأخير الذي في مقدوره أن ينهض إن هو كوّن لنفسه وعياً حقيقياً، بما يجري من حوله، وتخلّص من سلبه التي فرضها عليه عقله المستقيل،

1. "بين الرّشاد والتّيه"، (طبع بالجزائر بإذن من دار الفكر، 1988)، ط2، ص 54.

2. المصدر السّابق، ص 196.

ولنا في شبابنا المستقيم ورجالنا الحقيقيين والنّخبة من مثقّفين طاقات يعوّل عليها، فلنسلّم لهم المشعل حتّى نستعيد ماضيها المشرفّ ولا نطلّ واقفين على أطلاله، هذه الصّرخة يزداد دويّها بزيادة الاحتكاك بين المسلمين والحضارة الغربية، ولو كان هذا الاحتكاك بين الإسلام وبينها لما صدمت أو وقفت في وجهه، لكن ما أبعدنا وأبعد مجتمعاتنا عن الرّوح الحقيقيّة لهذا الدّين، لأنّ الاحتكاك إنّما هو حاصل في الواقع بين حضارة خامدة وحضارة مشرقة تنبض بالحياة¹.

إنّ مثل هذه المواقف تحيلنا إلى المناقشات المحتدمة الّتي تدور حول مسألة حوار الحضارات أو صدامها، ونقصد هنا على وجه الخصوص حضارتين معيّنتين، الإسلامية والأوروبيّة، فعلى الرّغم من كونه حواراً غير متكافئ إلاّ أنّه يشكّل ضرورة لا مفرّ منها إن أردنا أن نحقق لأنفسنا موقعا بين الكبار، فالنهضة الّتي نريدها لمجتمعاتنا الإسلامية لن تكون إلاّ إذا عدنا القهقريّ فتصفّحنا ماضيها البعيد والمشرق، وجعلنا من شخصيّة رسولنا الكريم محمّد صلى الله عليه وسلّم قدوة لنا في الكفاح والمواظبة والصّبر على الأذى والإصرار على الهدف، حيث نجح في أن ينقل العرب من مستوى قبلي ضيق إلى مستوى العالميّة، ففتحوا العالم وأنشئوا حضارة تراامت أطرافها لتشمل الشّرق والغرب معا، فإذا كان هذا حال ماضيها فإنّ نهضتنا اليوم أمر ليس بالأمر المستحيل إذا وضعنا نصب أعيننا أن أمة أخرى بنت نهضتها، وأنشأت تيّار الحداثة وما بعده، الأمر الّذي لم يتسنّى لها إحرازه إلاّ بعد أن حققت وعيا تاريخيا بأسباب تأخّرها وبمظاهر هذا التأخّر، وكذلك بأسباب التّهوض والخروج من الأزمة.

1. أبو الأعلى المودودي: "نحن والحضارة الغربية"، ص 46.